كتب

عادةً ما يقف المؤرّخون، حينما يتصدّون لكتابة تاريخ الكتاب، عند تحوّلاته التقنية والثقافية على مرّ العصور، فيما يقترح الباحث الفرنسي يان سوردييه إضاءة الممارسات الحافّة بصناعة الكتاب، بما يجعلها أكثر من صناعة؛ إنها عملية توليد حضاريّ شامل

تاريخ الكتاب والنشر تذويب الأبراج العاجية

مغامرات سُرّاق النار ومناوراتهم

شوقي بن حسن

كتابٌ عن تاريخ الكتاب! يوجد من ذلك الكثير. مؤرّخون وكتّاب وباحثون فعلوا ذلك. وهي نفسها المغامرة التي تصدّى لها المؤرخ والمكتبيّ الفرنسي يان سورديه (1971)، في عمل بعنوان «تاريخ الكتاب والنشر» صدر هذا العام عن منشورات «ألبان ميشال». فما الجديد الذي يقترحه؟

قد تجعلنا العلاقة التقنية التي تربط المؤلّف بالكتاب نخمّن بأن هناك ما يختلف في هذا العمل عن بقية ما أُنجز في الإطار ذاته. لكنّ الخبرة المكتبية لا تحضر إلّا كخلفية. وربما نعتقد بأن ما راكمه الباحث حول تاريخ الكتاب ـ وهو الذي يشرف منذ سنوات على مجلّة بعنوان «تاريخ وحضارة الكتاب» ـ سيمدّه بمادّة عمله، لكنّ ذلك لن يضمن له تقديمَ جديد.

تقع الإضافة التي يقدّمها سورديه في مكان آخر، فحضور النشر في العنوان لم يكن مجرّد لمسة ديكورية، بل سيترتّب عليها اقتراح رؤية مختلفة لكامل تاريخ الكتاب، فعادةً ما يقف المؤرخون عند تحوّلاته التقنية والثقافية على مرّ العصور، لكنّ إدخال تاريخ النشر إلى جانبه سيضعنا أيضاً أمام تاريخ الممارسات الحافّة بصناعة الكتاب، بما يجعلها أكثر من صناعة؛ إنّها عملية توليد حضاري تنشأ ضمن تفاعلات متداخلة ومعقّدة ومنعكسة (تغيير الفضاء الحضاري يترتّب عليه تحوّل في تاريخ الكتاب، وهكذا).

ينطلق سورديه من قراءةٍ هيستوغرافيا الكتاب (كيف كُتب تاريخه؟) وأوّل ما يشير إليه هو أنّه حقل معرفيّ لم يتبلور إلّا في القرن العشرين، كفكرة في بداياته، وكمنجز يتراكم باستمرار منذ منتصفه. ويجعل المؤلّف لتاريخ الكتاب تاريخَ ولادةٍ مع صدور عمل بعنوان «ظهور الكتاب» لـ لوسيان فافر وهنري جان مارتن في 1957، مع ملاحظة لطيفة بأنّه ظهر في الدار نفسها، بل والسلسلة نفسها (بعنوان: تطوّر البشرية)، التي يظهر فيها عمل سورديه.

قبل تلك اللحظة التاريخية، لم يكن إنجاز تاريخ الكتاب ممكناً إلّا في حدود الكتابة الانطباعية العامة، فمع استقرار نظام بيبليوغرافي عالمي بات معظم ما يُنشر ككتب مرئياً بشكل ما، وبالتالي فإن توليد أرقام وإحصائيات ووضع مقارنات بين مجموعات الكتب المتناثرة هو ما يتيح قول شيء تاريخيّ عن الكتاب.

لا يفوت سورديه أن يشير إلى أنّ المسطرة التي قادت انطلاقات التأريخ للكتاب هي رصد التحوّلات التقنية، من الأزمنة البعيدة إلى يومنا، بما في ذلك من إغفال للبعد البشري حيث تتداخل في عملية ظهور أيّ كتاب عدّة «شخصيات»؛ مؤلّفون ونسّاخ ومقتنون وباعة ورقباء، وصولاً إلى شخصيات الأزمنة الحديثة من ناشرين وقرّاء. ومع مثل هذه الملاحظات نفهم من البداية أنّ كتاب سورديه سيزاوج بين هاجس كتابة تاريخ الكتاب وهاجس نقد ما لم يُكتب بعد منه.

يؤكّد المؤلّف على أن المناهج التي وُضعت إلى اليوم ضمن حقل هيستوغرافيا الكتاب تستطيع أن تفسّر لنا لماذا ظهرت المطبعة في ألمانيا، ولماذا حدثت طفرة في أرقام النسَخ المطبوعة في إنكلترا القرن التاسع عشر، وكيف ظهر كتاب الجيب، لكنّها لن تفسّر أبداً لماذا كان كتاب «الاعترافات» لأغسطينوس بذلك التقسيم المحدّد، ولماذا

خارج شروط اللعبة

القضايا التي يطرحها يان سورديه، عن واقع الكتاب والنشر لا نجدها في الثقافة العربية، إذ ما زلنا نسمع عن تعطيلات التوزيع وسوء ترتيب روزنامة المعارض، وعزوف القرّاء، والتُّهم المتبادلة بين الكتّاب والناشرين. يُخبرنا سورديه بأنّ تحوّلات الكتاب اليوم محكومة بقواعد لعبة عصر المعلومات، ولا يبدو أنّنا نعيشه. بهذا المعنى، تبدو الثقافة العربية خارج «تاريخ الكتاب والنشر» اليوم.

جرى الاستقرار على أجناس مثل الرواية وأقصيت أخرى من المطبوع.

يلفتنا المؤلّف أيضاً إلى أنّ تاريخ الكتاب بات يستدعي تواريخَ موازية: تاريخ القراءة مع ظهور حقل بحثيّ يؤكّد على أهمّية القارئ في تشكيل أفق أي نص، وقبل ذلك تاريخ الكتابة، وتاريخ العلامات، وتاريخ التبادل الاقتصادي والمعرفي (...). لذلك، يعتبر سورديه أنّ أقرب توصيف يُتيح أن نرى الكتاب في السلّم التاريخي هو اعتباره «خميرة»، أي إطاراً تتجمّع فيه عناصر متعدّدة تظلّ تتفاعل معاً عبر الزمن إلى أن تُفرز وجهاً جديداً للكتاب، ولكلّ ما حولها.

في هذا السياق، يناقش المؤرّخ مقولة أنّ علينا أن نفكّ الأسطرة عن الكتاب وأن ننظر إليه باعتباره بضاعة، تحكمها قوانين البضائع الأخرى نفسها. يرى سورديه أنّ تاريخ الكتاب هو ما يدلّنا على أنّ هذا الشيء مفلتٌ من قالب البضاعة، فالأخيرة مفهوم مرتبط بالسوق، في حين أنّ تاريخ الكتاب

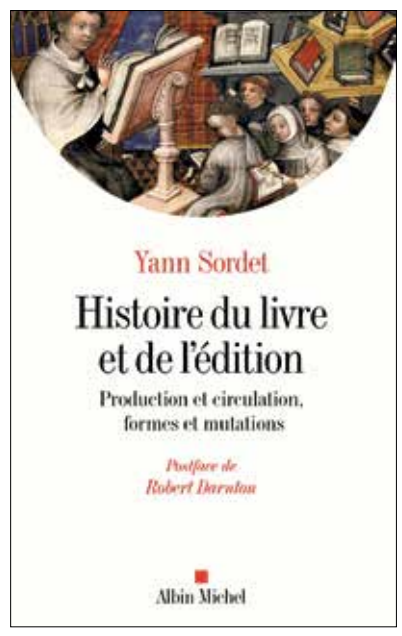

عاش الكتاب حالة من القداسة سقطت مع الحداثة ثم استُؤنفت

تتفكّك مهنة الناشر بمرور الزمن بين مجموعة مهمّات ومهن

قد تمرحل من دون وجود سوق تقريباً، كما هو الحال في العصور الوسطى التي تمتدّ على فترة زمنية أطول من العصور الحديثة.

قد ينتبه قارئ عربيّ هنا إلى أنّ قياس مقولة سورديه على التاريخ العربي يبيّن أنّ تلك الحقبة قد عرفت فيها مدنٌ مثل بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة أسواقاً حيوية للكتب، حيث لم تكن هناك مؤسّسات سياسية أو عقائدية تمنع تبلور سوق الكتب، لكنّنا لا نستطيع تحميل سورديه مسؤولية كتابة تاريخ الكتاب في حضارات أخرى غير التي يعرفها.

بعد نقاش القضايا المتعلّقة بتاريخ الكتاب، يظهر البُعد الهيستوغرافي، وهنا يأخذ الكتاب الصورة الكلاسيكية نفسها لأيّ عمل عن تاريخ الكتاب، فيعود إلى عصور بعيدة وحضارات متنوّعة ليرصد كيف تطوّرت مختلف التقنيات التي جعلت صناعة الكتاب ممكنة (الأبجدية، الورق، التجارة...) وكيف نشأ مجتمعٌ محوره الكتاب (كهنة، نسّاخة، تجّار كتب، مقتنون...). ويلاحظ المؤلّف أنّ للكتاب تاريخاً عَوْلمياً، وهو ما يعني لاحقاً أنّ يوهان غوتنبرغ ليس «معجزة غربية» وإنّما هو عقلٌ صبّت فيه روافد المعرفة التقنية للبشرية جمعاء فأنتج المطبعة الحديثة (نعرف أنّ الطباعة بشكل عام ظهرت في الصين)، وأنّ سياقاتٍ متضافرة أتاحت أن تتحوّل آلته إلى محرّك تاريخي، حين صادفت انتشار الثقافة المقاولاتية تحت سقف تبلوُر الرأسمالية، ولمّا تقاطع كلّ ذلك مع المدّ الاستعماري بات اختراع غوتنبرغ بحجم كوكبيّ.

إلى هنا، ما زلنا في تأريخ الكتاب وحده، فالقول بوجود عملية نشر قبل المطبعة لا يُقال إلّا بصيغة من التجاوز، لأنّ النشر قائم على التفطّن إلى سلطة الكتاب وإلى إمكانية كسر احتكار السُلطة لسلطة الكتاب. بالتالي، فالأمر أشبه بالأسطورة البروميثويوسية، حين جرى تحويل النار من سلطة في خدمة السلطة إلى سلطة تخدم أيّاً كان.

بعبارة أخرى، نحتاج أن نكون في جيل على الأقل بعد غوتنبرغ كي يصبح الناشر ممكناً. ينبغي وجود سوق قد ترسّخت أقدامها بحيث تغري بعض الأفراد على التخصّص في تلك المهنة دون غيرها، كما يحتاج الأمر إلى شروخ ثقافية وإثنية وعقائدية كما هو الحال في أوروبا بين كاثوليكية إيطاليا وفرنسا، وبروتستانتيّة ألمانيا وإنكلترا.

حتى إذا بلغنا القرن السادس عشر، وجدنا أنّ كلّ شيء قد تهيّأ ـ في فرنسا وجنوب ألمانيا على الأقلّ ـ للحديث عن تداخل التاريخين: تاريخ الكتاب وتاريخ النشر، وقد أصبح محرّك الحداثة جاهزاً كي يعمل بكلّ طاقته. فبما أن الناشرين هُم سرّاق نار، سوف يميلون إلى تمرير قيَم تقلب السائد (نعرف اليوم أنها قيَم الطبقة البورجوازية التي لن تظهر في الصورة إلّا نهاية القرن الثامن عشر)، وبمنطق السوق سيُخرجون المعرفة من الأبراج العاجية إلى الطريق العام.

في الأثناء، وضعت المطبعة مولوداً جديداً هو الصحافة (القرن السابع عشر)، فمنحت للكتاب أجنحة جديدة وغذّته بالأفكار النشيطة. حدث ذلك، كما يفسّر سورديه، بفعل تجاور مجتمعَيْ الكتاب والنشر من جهة، ومجتمع الصحافة من أخرى، إذ يجتمعان في فضاء واحد هو المطابع، بما كان يخدمهما معاً. ويرى المؤلّف أن الصحافة وضعت تحت أيدي الناشرين عناصر يمكنهم تركيبها بسهولة ليصنعوا ربيعهم.

يلاحظ سورديه، برشاقة، أنّ الكتاب ـ منذ غوتنبرغ إلى ظهور الصحافة ـ عاش مرحلة يسمّيها «من نهاية قداسة الكتاب إلى انبعاثها»، حيث خلقت الصحافة شكلاً جديداً من القداسة مبنيّاً على نجاحات السوق، ومن ثمّ أوحت بأفكار مثل اختراع سلاسل الكتب (شيء بين الكتاب والجريدة)، وصولاً إلى كتب الجيب وقوائم «الأكثر مبيعاً» في القرن العشرين، وقبل ذلك ظهور مفهوم «الكلاسيكيات» في القرن 19، فحوّلت شكسبير إلى قدّيس جديد، وقد يحدث ذلك مع كاتب حيّ مثل فيكتور هيغو.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

روزنامة لعام 1878 يظهر فيها تمثال غوتنبرغ في ستراسبوغ، فرنسا

نظرة أولى

عن «الأهلية» في عمّان، صدرت حديثاً النسخة العربية من رواية **أيّام السلطان عبد الحميد الأخيرة** للكاتب التركي ناهد سرّي أوريك، بترجمة أحمد زكريا وملاك دينيز أوزدمير. يُفتَتح السرد مع إعلان السلطان عام 1908 حقبةً دستورية ثانية، أو ما يُعرَف بالمشروطية الثانية، التي اضطرته إليها ثورة «تركيا الفتاة». تركّز الرواية على هذه الفترة المكثّفة بالأحداث من تاريخ تركيا، وصولاً إلى انتهاء حكم السلطان عام 1909، والصراعات التي شهدتها تركيا، مع إضاءة على دور المصالح والعلاقات الشخصية في إدارة أمور الدولة.

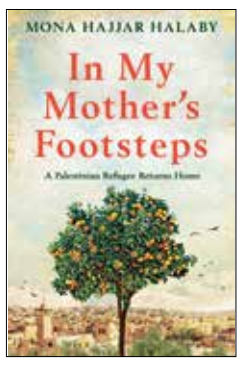

على خطى أمّي: عودة لاجئة فلسطينية إلى الوطن كتاب الباحثة الفلسطينية منى حجّار حلبي الذي يصدر قريباً بالإنكليزية عن منشورات «ثريد بوكس» الأميركية. يأخذنا العمل في رحلة مع الكاتبة إلى رام الله التي عادت إليها من كاليفورنيا، ومذكراتها وانطباعاتها عن فلسطين وأسواقها وشوارعها وأحيائها التي عرفتها من أحاديث والدتها، وكيف حلمت أن تأخذها أمها لتعرّفها إلى وطنها الأم، ثم كيف تبادلت الأدوار معها، بعد 59 عاماً في المنفى، لتقودها إلى القدس والبيت القديم المغتصب، وتصبح هي الراوية الجديدة للمأساة نفسها.

الفكر التنويري عند نصر حامد أبو زيد ودوره في تجديد الخطاب الديني عنوان كتاب صدر مؤخّراً عن «دار مصر العربية» للباحث حيدر عبد السادة جودة. يرصد العمل جوانب من انشغالات المفكّر المصري (1943 - 2010)، خصوصاً محاولته الكشف عن المضمَر في النصوص الكبرى، الدينية منها على وجه الخصوص، وبالتالي فهم كيف يجري بناء التسلّط عبر المقدّس. وفي هذا السياق ظهر مشروعه بدراسة أشكال «الخطاب الديني»، وهو ما جعله عرضة إلى تضييقات أكاديمية واجتماعية وعقائدية، ما اضطرّه للالتجاء إلى المنفى في هولندا، خشيةَ التعرّض للاغتيال.

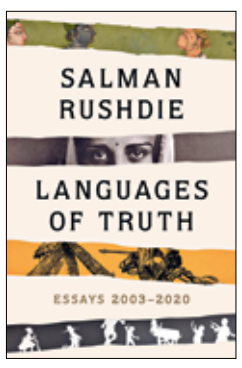

صعود الخيال الذاتي (الأوتوفيكشن)، وظاهرة ترامب، وكوفيد - 19، كلها قضايا تشغل الروائي سلمان رشدي في كتابه **لغات الحقيقة: مقالات 2003-2020** الصادر عن «منشورات راندوم هاوس»، وسعى من خلاله إلى استكشاف الحكايات التي وُجدت بالنسبة إليه قبل الكتب، وما نحبّه منها يجعلنا على ما نحن عليه، كما يناقش تأثير عدد من الكتّاب عليه؛ مثل ثربانتس وشكسبير وهارولد بينتر، ويعرّج أيضاً على أعمال بعض الفنانين وارتباطها بمقولات فلسفية وأدبية، بالإضافة إلى تأكيده أنّ الأدب يحاول تذكيرنا بما يجبرنا العالم على نسيانه.

ضمن سلسلة «مرايا السرد» التي أطلقتها «دار كلمة» في تونس مؤخّراً، صدر كتاب **السرد البوليسي في الرواية العربيّة: كتابة المحاكاة وكتابة الانزياح والتوظيف** للباحث التونسي بلقاسم مارس. لا يتناول المؤلّف مسألة السرد البوليسي من منطلقات عدم تأصّل هذا الشكل من الكتابة في الثقافة العربية، كما درجت على ذلك معظم الأعمال البحثية، بل يذهب إلى النصوص مباشرةً، مشتغلاً بتحليل البنى الخطابية والشخصيات التي تظهر في السرد البوليسي العربي، من دون أن يكون من الضروري تصنيف هذه الأعمال ضمن ما يُعرف بالأدب البوليسي الخالص.

الذكاء الاصطناعي: رحلة السعي والبحث عن العقل الآلي المطلق عنوان النسخة العربية من كتاب للباحث في البرمجيات ريتشارد أوروين بترجمة عمران عوينات عن «دار البيروني للنشر والتوزيع» في عمّان. يضيء العمل الأساليب التقنية التي قد تغيّر أنماط حياتنا بشكل نوعي، وتنطلق من البحث العلمي المتواصل في وظائف الدماغ، كما يفصّل مسائل تتّصل بتاريخ الذكاء الاصطناعي، والمنطق المشوّش، وهندسة التبعية، والشبكات العصبية، والذكاء السربي، ودراسة البيانات الضخمة وغيرها من المواضيع، للإجابة عن سؤال: هل باستطاعة الآلات أن تفكّر؟

عن «دار الشروق»، صدرت منذ أيام رواية **متاهة الإسكندرية** للكاتب والشاعر المصري علاء خالد. يشير العمل إلى ارتباط المؤلّف (1960) بالمدينة الحاضرة في كثير من أعماله السابقة، من الشعر إلى الرواية إلى المذكّرات واليوميات. من أعمال خالد الأخرى: «كرسيّان متقابلان» (2006)، و«تحت شمس ذاكرة أخرى» (2012)، و«لمرّة واحدة» (2015)، وهي مجموعات شعرية؛ كما صدرت له رواية بعنوان «أشباح بيت هاينريش بل» (2017)، وكتابٌ ضمن أدب الرحلة بعنوان «أكتب إليكِ من بلد بعيد» (2016)، ومذكّرات بعنوان «مسار الأزرق الحزين» (2015).

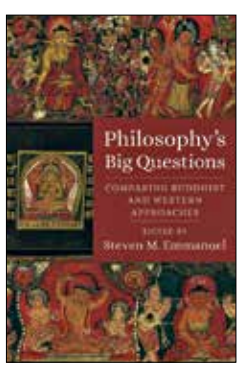

أسئلة الفلسفة الكبرى: مقارنة بين المقارَبات البوذية والغربية عنوان الكتاب الصادر حديثاً بالإنكليزية عن «منشورات جامعة كولومبيا» من إعداد ستيفن م. إيمانويل، أستاذ الفلسفة في جامعة «فيرجينيا ويسليان» وعميد «كلية سوزان غود للآداب والعلوم الإنسانية» بالاشتراك مع سبعة باحثين آخرين. يطرح الكتاب الأسئلة الفلسفية من منظور مقارن ومتعدّد الثقافات، ويؤكّد أنّ المقاربة البوذية تساعد في العودة بالفلسفة إلى هدفها العملي والنظري الأصلي، وتوفر للباحثين أدوات وطرقاً ورؤى مفاهيمية جديدة وإجابات بديلة.